

## التصوف بين التجني والتمني

د| محمود أبو الهدي الحسيني

نعيش في زمان حبس الانهماك المادي فيه استعدادات الروح, وحلت الرغبات الغريزية فيه محل العاطفة الصادقة, وكادت اللطائف الروحية أن تكون فيه مجرد كلام في الأفواه, أو طقوس في الحركات واللباس.

ولكن ... مهما استغرقنا في مثل هذه البيئة الكثيفة فسوف نبقى نرصد في جذورنا بقية حياة, وفي أغصاننا بقايا عروق حيوية.

وسوف نبقى نصغي إلي أصوات الينابيع المحبوسة تحت قشورنا الترابية منتظرة من يخرجها من محبسها ليعيد إليها نبض الحياة من جديد.

إننا ونحن ننشد السلام في العالم, ونبحث عن الجمال فوق كوكبنا الأرضي منطلقين في حركتنا من حقائق التصوف, نقف غالباً في الوسط, وعلى جانبينا فريقان:

**الفريق الأول** يدعي التصوف ويتوهم أنه يعيش أحواله, وما حقيقة أمره إلا أنه يتمناه! فأسميته من هذا الاعتبار (**فريق التمني**) والفرق كبير بين التصوف وتمنيه.

أما **الفريق الثاني** فهو صنف مارس التصوف داخل الصومعة, بعيداً عن الواقع المادي الظالم الذي ينتظر عطاءه الروحي, يشبه الذي يجلس خارج المدينة الظامئة في الينابيع العذبة, فيحصن تلك الينابيع ويبني عليها أرفع الجدران, ويشرب ويرتوي وأبناء مدينته في أشد الحاجة إلي الماء.

انه في تلك الحالة يعيش أنانية الارتواء, لماذا لا ينتقل إلي العطاش الماء وهو يقدر علي ذلك؟ انه يشبه رجل الإطفاء الذي يحبس الماء في مركبته وأمامه الحريق ملتهب!

ومن هذا الاعتبار أسميته (**فريق التجني**) وفردية الغني في زمن الفقر هي بنظري عين التجني, وانزوائية الشعبان في زمن المجاعة هي من أكبر آثام التجني ومظاهره.

كان لابد من هذه المقدمة قبل الكلام علي موضوع الندوة وهدفها الدائر حول (تحقيق السلام) فمما لا شك فيه أن تحقيق السلام يحتاج الي حركة وحياة, فالحركة مفقودة في فريق التجني,

والحياة مفقودة في فريق التمني, والتصوف الذي هو مقدمة السلام هو (الحركة الحية) أو (الحياة المتحركة).

وقد قال أهل المعرفة:

لئن كان قوم بالزوايا تقيدوا فانا نري كل الوجود زواياكم

وأجاب أحدهم<sup>1</sup> حين سئل عن معني الخلوة فقال: "أن تدخل الزحام وأن لا يزاحمك في سرك". ومن هذه الرؤية يتحرك الصوفي في الكون وهو يراه زاوية صوفية, كل من فيها ذاك للحق,

ومسبح بحمده, فأفلاكه في مشهد الحقيقة تدور في حلقة الذكر هائمة, وكواكبه وشموسه ونجومه تتألق بأنوار الهبات والعطايا الربانية والمواهب الصمدانية, وهي تقول لشيخها وإمامها الإنسان,

نحن من ورائك في حلقة الذكر هذه نسير, وخلفك في منازل المحبة نهيم.

فمن تنبه من البشر إلي منزلته ومكانته تناغم مع هذه الحلقة الشهودية وانسجم مع ذكرها الدائر القائم الهائم, ومن غفل عن مكانته وموقعه في دائرة الشهود يتراجع عن مكانه في حلقة الذكر

الكونية, ويبحث عن موقع له بين البهائم الآكلة الراتعة, أو كهف له بين الضباع والسباع.

كان الصوفي جلال الدين الرومي يحكي قصة عيسي عليه السلام التمل بالحق, وقصة حمار عيسي التمل بالشعير<sup>2</sup>, وكيف مضي عيسي بن مريم إلي السماء, وكيف بقي حماره في الأسفل..

<sup>1</sup> وهو أبو محمد الجريري كما في الرسالة القشيرية.

<sup>2</sup> انظر المثنوي 2619/4.

وكان الرومي يري البشر صنفين: صنف بحث عن مكان له خلف عيسي, وصنف بحث عن مكان له خلف حمارة, وكان يري جبريل راقصا في عشق جمال الحق, ويصر العفريت راقصا في عشق شيطانه.<sup>3</sup>

ومن موقع الإنسان الشيخ الإمام في حلقة الذكر الكونية يكون الإنسان راعيا للكون حافظا له من كل اضطراب, ومن موقعه هذا يحزن حزنا شديدا علي الذين تركوا موقعهم الإنساني إلي مراتع البهائم أو غابات السباع, ويدرك أن العالم البشري سوف يتحول إلي غابة يكثر فيها المفترس والمفترس حين يكثر التاركون لமானزهم الإنسانية.

ولكن ماذا يفعل الصوفي الصادق في مثل هذا الحال؟

انه لو ترك الغابة المضطربة إلي صومعته سيكون ملتحقا بالفريق المتجني المتمصوف (لا الصوفي).

ولو اشترك بسلوكه في فوضي البهائم والسباع سيكون ملتحقا بالفريق المتمني المتمصوف أيضا (لا الصوفي).

فما هو الاختيار إذا؟

أما سلوكه فمستمد من توجيه معشوقه الأوحده الذي (جعلت الدنيا والآخرة نثارا علي جماله<sup>4</sup>) الذي قال له: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير) هود 112 فاستقام غير أبه بترغيب البهائم ولا ترهيب السباع.

وأما حاله فمستمد من كفاية كافيته الأمد الذي له ملك السماوات والأرض, الذي قال له: (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد) الزمر 36.

وأما خلقه فمستمد من سيد كريم كانت مشقة البشر تعز عليه, سماه عيسي (أحمد) وسماه الله في القرآن (محمد) قد وصفه ربه فقال: (عزيز عليه ما عنتم) التوبة 128. وكان مرسلا حريصا علي سلامة الإنسانية وسلامها قد قال فيه مرسله: (حريص عليكم) التوبة 128.

وبهذه الأركان الثلاثة (السلوك, والحال, والخلق) يستطيع الصوفي التأثير في البشرية, وبدلا من تخريبها يعمر بنيان هويتها.

انه بهذه الأركان الثلاثة يصير مشفقا علي القاتل أكثر من إشفاقه علي القتيل, ويصبح راحما لأشبه البهائم والسباع أكثر من رحمته بالذين يتأدون بالبهائم و السباع.

وتكثير النوع المتمثل بهذه الأركان يعني تكثير النوع الإنساني, ويعني تعميم السلامة والسلام في كوكب الأرض.

كما أن هذا لا يعني غياب السلوك الحافظ للبشر الواقعي له من أشباه السباع, وأعني بذلك جهاد الصوفي وقتاله للمعتدين الراغبين في استئصال الإنسانية, فوقاية البشر بصد العدوان عليهم هو جزء مكمل لمهمة الصوفي, فمطلوب لحماية الإنسانية حفظ مكانتها وحفظ مكانها, وقد شارك الإمام الشاذلي في معركة المنصورة أيام الظاهر بيبرس في مقابلة ملك فرنسا لويس التاسع<sup>5</sup>, فكما كان الشاذلي يبني الإنسان كان يحميه في الوقت نفسه من أعداء الإنسان.

وشارك السنوسيون في مقارعة المحتل المعتدي, وشارك الصوفي الجزائري الأمير عبد القادر في جهاد المستعمر ودفع البغاة اللابسين صورة البشر فوق أجساد ذنبية سبعية.

إني أعتقد أن نجاحنا في مثل هذه الندوة يتحقق إذا استطعنا إيجاد الآليات التي تنتشر النوع الإنساني المتميز (بالسلوك, والخلق, والحال) فالتحدي الذي ينتظر الصوفي الصادق هو كيفية بناء السلوك والخلق والحال في زمن العولمة المعاصرة التي تمزق بفوضويتها أبواب الأخلاق وتدمر بطغيانها موازين السلوك وتعيق بكثرة أزوماتها استقرار القلوب.

وحين يفتح علينا في آليات هذا البناء, فان ذلك يعني قرب البشارة, وصحة الإشارة وما ذلك علي الله بعزير.

<sup>3</sup> انظر ديوان شمس تبريز 24645/2327 كذا في يد العشق.

<sup>4</sup> انظر ديوان شمس تبريز 166/19 كذا في يد العشق/50.

<sup>5</sup> المدرسة الشاذلية صفحة 65.